ناصيف المعلوف وأسرتهُ

بقلم عيسى افندي اسكندر المعلوف
مدرّس آداب اللغة العربيّة والخطابة في المدرسة الشرقيّة في زحلة (تابع)

٣ ناصيف المعلوف اللبناني

كان والد ناصيف هذا وهو الياس بن حنّا بن ابي فارس منعم من سلالة عيسى ابراهيم المعلوف مقرّبًا من المير بشير الشهابي الكبير فنشّأهُ ولدهُ المير امين ناظرًا لاملاكهِ في بلاد جبيل لما رأى فيهِ من اخلاص الخدمة والدراية فبقي زهاء عشرين سنة قائمًا في ما وُكّل اليهِ احسن قيام فازدادت منزلتهُ رفعةً في عيون المير الكبير واولادهِ فأحبّوهُ كثيرًا وعهدوا اليهِ بكثير من الاعمال الخطيرة ووثقوا بهِ كل الثقة وبقي ناظرًا لاملاكهم الى ان توفي في قرية شامات من بلاد جبيل سنة ١٨٥٠ م وكان كاتبًا حاسبًا ماهرًا استنسخ كثيرًا من الكتب بخطهِ الجميل

وكان مسكن الياس هذا في قرية زبوغة (١ من اعمال لبنان في قضاء المتن فوُلد لهُ فيها ولدان احدهما ناصيف في ٢٠ اذار سنة ١٨٢٣ (٢ والآخر يوسف سنة ١٨٢٨ وهذا سيم كاهنًا على قريتهِ زبوغة باسمهِ وبقي يخدم الانفس فيها الى ان توفي سنة ١٨٩٣ عن ولد واحفاد

امّا ناصيف بكر الياس صاحب هذه الترجمة فمال منذ نعومة اظفارهِ الى العلوم وشغف بها لانهُ وهو صغير كان يرافق والدهُ الى بيت الدين حيث كان مجلس المير بشير حافلًا بالشعراء والعلماء مثل العلّامة الشهير الشيخ ناصيف اليازجي اللبناني والشاعر المطبوع بطرس كرامة الحمصي والعالم الفاضل الشيخ رشيد الدحداح (٣ وغيرهم .

---

١) ان قرية زبوغة هي اليوم من مديريّة بكفتا من قضاء المتن في لبنان الى الغرب الجنوبي من قرية كفرعقاب مقرّ معظم الاسرة المعلوفيّة وسبب افتشارها ولن تزال في زبوغة أسرة بني منعم المعلوفيّة الى يومنا

٢) جاء في ترجمتهِ الافرنسيّة التي سيأتي ذكرها انهُ وُلد سنة ١٨٢٧ م وذلك خطأ امّا معجم المعاصرين للعلّامة قابرو (Vapereau) فذكر ولادتهُ في هذه السنة وهو الصحيح

٣) راجع ترجمتهُ في مجلة المشرق الغرّاء السنة الرابعة

فكان المير واولادهُ يقولون لوالدهِ : « علّمهُ فتنظمهُ في سلك هذا الديوان » وهو يسمع مقالهم فيزداد رغبةً والنفس طامحة الى العلاء من طبعها

فتلقّى مبادئ العلوم على خالهِ المرحوم الخوري ميخائيل العفيش (١ رئيس دير القديس سمعان العمودي (٢ قرب مسقط رأسهِ فاتقنها ولمّا رأى منهُ الطيب الذكر المطران اغابيوس الرياشي (٣ ذكاء واجتهاداً استكتبهُ مدّةً فكان يرافقهُ الى بيروت شتاء حيث اتمّ عارمهُ فيها على الخوري اغابيوس البنّاء واتّصل بكثير من علماء عصره فاقتبس منهم ما زادهُ رغبةً في العلم ودرس مبادئ اللغتين الفرنسويّة والايطاليّة على بعض المرسلين في بيروت فاتخذهُ المطران اغابيوس المشار اليهِ كاتماً لاسرارهِ ثمّ وكيلاً لهُ في بيروت فقام بما انتدبهُ اليهِ على صغر سنهِ بهمّة ونشاط اذ لم يكن قد بلغ العشرين . وكان يغتنم الفرص للمطالعة واستزادة معارفهِ كانهُ كان ينظر الى مستقبل اكبر ولاسيما بعد ان تغيّرت الاحوال فقطع ناصيف حبل آمالهِ وحدّثتهُ نفسهُ بالسفر

وفي تلك الاثناء قدم من ازمير الى بيروت التاجر الشهير المرحوم يوحنّا العرقتجي

---

١) انّ بني العفيش جاؤوا من قارة والتيك نحو سنة ١٧١٠ م الى لبنان وسوريّة واستقرّوا في قرية المجدلة قرب بكفيّا في لبنان ومنهم الخوري ميخائيل هذا ومن هذه القرية تزوّج بعضهم الى بيروت ومنهم من استوطن زحلة ويعرفون فيها ببني هاشم الى يومنا هذا

٢) ذكر دير القديس سمعان العمودي لطائفة الروم الكاثوليك في سجلّ الرهبنة الحلّاوية سنة ١٧٣٢ م ولا نعرف بانيهُ وفي سنة ١٧٦٦ ضُمّ رهبانهُ الى الرهبنة الحلّاويّة وصار من اديارها بأمر السيد ثاوفوسيوس الدهّان البطريرك . ثم أُعيد لمطران بيروت . وفي سنة ١٧٩٧ التأم المجمع السادس عشر في دير القديس ميخائيل تجاه زوق مكايل لانشاء الرهبنة السمعانيّة التي انشأها فيهِ السيد اغناطيوس صرّوف مطران بيروت اذ ذاك فالفوها وكان هذا الدير مقرّاً لبطاركة الروم الكاثوليك الى ان قُتل فيهِ السيد اغناطيوس هذا بعد ان صار بطريركاً سنة ١٨١٢ فصار بعد ذلك هذا الدير مصيفاً لمطارنة بيروت الى يومنا وهو من مديريّة بكسّتا قائم على مرتفع يطلّ عن البحر زهاء ١٠٤٤ متراً يشرف على بيروت والبحر تحدق بهِ اشجار الصنوبر على مرتفعات حولهُ وقد جرّ اليهِ الماء المطران اغابيوس الرياشي بقناطر بديعة وفيهِ ابنية شائقة وكنيسة كبيرة انشأها على هندسة كنيسة القديسين بطرس وبولس في رومية السيد اغناطيوس صرّوف . وقد رمّم بعض مبانيهِ السيد اغابيوس المعلوف مطران بعلبك لمّا كان نائباً اسقفيّاً في بيروت . ورئيسهُ اليوم حضرة الايكونوموس الفاضل الخوري يوسف حنّا المعلوف النائب الاسقفي في لبنان وهو نسيب ناصيف صاحب الترجمة

٣) راجع سيرة هذا الاسقف الجليل في احد اعداد المشرق من السنة الحالية (ص ٢٠٢)

لترويج اعماله فيها اذ كانت بيروت قد بدأت حياتها التجارية فكان يختلف الى الدار الاسقفية لزيارة السيد اغابيوس صديق نسيبه الطيب الذكر المطران باسيليوس العرقتنجي مطران حلب (١) . فتعرّف ناصيف به وجالسه مرارًا واشرب قلبهُ حبّ السفر الى ازمير لانها كانت مدينةً للعلم اذ ذاك وقد رافقهُ الى دير القديس ميخائيل في الزوق لزيارة ضريح نسيبه المطران الموما اليه فركبا متن البغال وعاجا بمدرسة عين طورة للآباء اللعازريين فتعرّف يوحنّا برئيسها الاب فرنسيس لامايا (راجع المشرق ٣ : ٥٤٨) وسأله عن مدرستهم في ازمير المعروفة بالبروباغندة وعن رئيسها وبعض اخوانه من اساتذتها فاجابهُ عن كل ما سأله عنهُ وناصيف يزداد شوقًا الى ازمير فطلب من حضرة صديقه الاب لامايا وصاة الى رئيس مدرستهم فيها ثمّ ودّعاهُ قدعا لهما بالتوفيق فعادا الى بيروت ومعظم حديثهما عن ازمير

٤ السفر الى ازمير

فاخذ ناصيف في اعداد الذرائع لاستئذان مخدومه السيد اغابيوس واسترضاء والديه بواسطته . فبذل الاسقف ما امكن من طرق الاقناع واظهر الوالدان عدم رضاهما عن ذلك فازداد ناصيف رغبةً واظهر لأهله انّ نجاحهُ مترتب على مزاولة بيروت لانّ الاشغال فيها قليلة والرواتب لا تفي بالنفقات

فلمّا رأوا جميعهم اصرارهُ على ما نوى ووثقوا بما وعدهم به يوحنّا المذكور من انهُ ينزلهُ في بيته ويتّخذهُ مدرّسًا لاولاده ويبذل النفس في سبيل راحته ودّعوهُ بقلوب خافقة وعيون ذارفة وما ادراك شدّة هول السفر في البحر في ايّامهم . فبكى لبكائهم وشكر عناية السيد اغابيوس الذي ودّعهُ آسفًا لفراقه لِما كان لهُ عندهُ من المنزلة وما كان يعلّق عليه من الآمال المستقبلة ولمّا كان موعد سفر الباخرة الى ازمير في التاسع عشر من ايّار سنة ١٨٤٣ تأهّبا لهُ

---

١) انّ المطران باسيليوس هذا كان صنو السيد اغابيوس في رهبنته وقد صار رئيسها العام سنة ١٨١٤ وانتُخب في اثناء رئاسته العامّة الى اسقفيّة حلب فسيم في ١٦ ت ١ سنة ١٨١٦ خلفًا للسيد مكسيموس مظلوم الشهير الذي كان قد تنازل عنها لدى الحبر الروماني . وكانت سيامتهُ من يد السيد اغناطيوس القطّان اللبناني بطريرك الطائفة . وتوفي السيد باسيليوس في دير مار ميخائيل في الزوق في ٢٩ ايّار سنة ١٨٢٣ ودُفن هناك

فأبحرا في هذا اليوم خارجين من ميناء بيروت فذهل ناصيف لمرآها من ظهر البحر وكانت قمم لبنان المغشّاة بالثلوج تتكشّف له الواحدة بعد الاخرى فاثّر ذلك الفراق في نفسهِ وبكى متذكّرًا اهلهُ وموطنهُ ثمَّ تابت اليهِ نفسهُ فتجلّد ونظر الى الآمال المستقبلة بعين ملؤها الثقة بالنجاح فتعزّى وصادف من لطف رفيقهِ ما بردّ لوعتهُ . وقد اصابهُ قليل من الدُوار لم يكن ليمنعهُ عن استعراض تلك الثغور التي لمامهُ فسرّح الابصار في كثير من مدن سوريّة الساحليّة وبرّ الاناضول وقرّ عينهُ بمنظر جزيرة رودس

ثمَّ اجتازت السفينة الارخبيل بين جُزر صغيرة كصاقس وبطمس ثمَّ اشرفت على رأس قرابورنو اي الرأس الاسود المعروف عند القدماء باسم الرأس ميلانا وهناك يبتدئ خليج ازمير حتّى اشرفت على ازمير فكان منظرها مؤثّرًا بقلب ناصيف وهي واقعة في آخر الخليج الى الشرق كتاج درّتهُ جبل باغوص فألقت البواخر مرساها في الميناء في نصف الليل من الخامس والعشرين من ايّار . وكانت قد عاجت بكثير من المدن التي مرّت عليها ونزل ركّابها الى بعضها لترويح النفس من عناء السفر وقد سرّ ناصيف كثيرًا بهذه الرحلة لانَّ البحر كان هادئًا والجوّ صافيًا وشاقهُ منظر ازمير البديع ورأى فرقًا كبيرًا بينها وبين مدينة بيروت التي لم يكن عمرانها شيئًا مذكورًا في تلك الآونة بل لم يكن سكّانها اكثر من بضعة عشر الفًا فقط

امّا ازمير فكانت وقتئذٍ الثانية في مدن الدولة العليّة في العمران وعدد سكانها نحو مائة الف نفس واكثر ابنيتها من الخشب . ولم يكن بُنيَ اذ ذاك مرساها وانّما كان مرفأها امينًا ولها الخليج الكبير المنسوب اليها طولهُ ١٨ ميلًا ومعدّل عرضهِ ثمانية لميال . ومن مشاهيرها في ذلك العهد بوغوص بك يوسفيان الذي كان يتولّى اذ ذاك نظارتي الخارجيّة والتجارة في مصر وتوفي في السنة التالية ١٨٤٤ وفي ازمير وُلد نوبار باشا الوزير الشهير سنة ١٨٢٥ . وكانت حالتها العلميّة مرضيةً فيها عدد من المطابع والجرائد في عدّة لغات . وكذلك مدارسها كانت في تقدم ونجاح

وكانت على الرصيف أسرة يوحنّا المرقنجي تتوقّع قدومهُ فاستقبلتهما وتعرّفوا بناصيف فساروا بهِ تواً الى منزلهم واكرموا مثواهُ فصار يدرس اولاد يوحنّا اللغة العربيّة ومبادئ الفرنساويّة فيثق بهِ يوحنا كل الثقة ويعتمد عليهِ في شؤونه التجاريّة لمهارتهِ في فنّ الحساب وحسن خطّهِ وسداد رأيهِ وأحبّتهُ أسرتهُ كثيرًا لأدبهِ ونشاطهِ

وقد اغتنم ناصيف تلك الفرصة فدخل مدرسة اخوة التعليم المسيحي سنة ١٨٤٤ ومارس الافرنسيَّة حتى برع فيها وبعد سنة اي سنة ١٨٤٥ انتظم في سلك اساتذة اللغات الشرقيَّة في مدرسة البروباغندة المارة الذكر للآباء اللعازريين وكان قبلاً قد عرف رئيسها فسرَّ به لذكائه ومعارفه ولوساطة صديقه وزميله رئيس مدرسة عين طورة الاب امايا كما ذكرنا قبلاً . فأبدى فيها براعة بالتدريس ولم يكن يصرف اوقات فراغه طلقاً فاتقن فيها اللغات التركيَّة والايطاليَّة واليونانيَّة الحديثة فازداد انصباباً وبراعة ونال منزلة لدى العلماء ورؤساء تلك المدرسة فاثنوا عليه كثيراً نخصّ منهم الاب اوجان بوره (E. Boré) رئيسها الشهير الذي اثنى مراراً على جدّه وبراعته وصدق خدمته . وقد بقي يدرّس فيها نحو عشر سنوات ويشتغل في اثناء ذلك بوضع تآليف مفيدة . وقد زار الاستانة العليَّة وباريس وبعض مدن اوربَّة (لهُ تابع)

شرح الآية (مَنَا تَقِلْ فَرِسْ)

نبذة لحضرة الدكتور يوسف اوفرد احد اعضاء الجمعية الكتابية في لندن

ذكر في الفصل الخامس من سفر دانيال (٥ : ٢٥) انَّ اصابع يدٍ سريَّة ظهرت بينما كان بلشصّر ملك بابل يولم لاهل بلاطه ويشرب في الآنية التي سلبها والدهُ من هيكل اورشليم فكتبت هذه الالفاظ التي تُقرأ في النصّ العبراني « مَنَا مَنَا تَقِلْ وفَرْسِين » (מנא מנא תקל ופרסין) قال الكتاب في تعبيرها (٥ : ٢٦) « منا اي احصى الله ملكك وأنهاهُ . تَقِل اي وُزنت في الميزان فوُجدت ناقصاً . فَرِس اي قُسمت مملكتك ودُفعت الى ماداي وفارس » وشروح المفسّرين على هذه الآية عديدة تكاد لا تُحصى (١

وفي الترجمة السبعينيَّة اليونانيَّة وردت تلك الالفاظ على تلك الصورة : « منا منا تقل فرس » (Mene, Mene, tekel, feres) وهي الفاظ بابليَّة كانت في الاصل

١) راجع ما كتبهُ في هذا الصدد من المقالات العلّامة بغرس وبرتون في الولايات المتَّحدة في المجلد الخامس عشر من مجلَّة الاداب الكتابيَّة (Journal of Biblical Literature. xv)